

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف الغاية من بعث الله تعالى في كل أمة من يبشرهم وينذرهم.
- 2- أن أقارن بين الفريقين الواردين في الآيات.
- 3- أن أقتدي بمنهج دعوة الرسول ﷺ الوارد في الآيات.

بعد بيان الله تعالى أنه لا ينتفع بنذارة الرسول ﷺ إلا المؤمنون ، ضرب سبحانه في هذه الآيات أربعة أمثال للفريقين ، تكشف عن اختلاف حالتهما . وروعي في هذه الأشباه توزيعها على صفة الكافر والمؤمن ، وعلى حالة الكفر والإيمان ، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر؛ ثم أكدت الآيات على صدق رسالة الإسلام ، وأبطلت شبه المعاندين المكذبين .

فكيف قارن الله تعالى بين الفريقين؟ وما الذي يدل على صدق الرسالة الإسلامية؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢١) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْغُبُورِ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن مَّرءَةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

تَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ
وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَيْفٍ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ [سورة فاطر: 19-26]

الفهم

الشرح:

الْمَعْرُورُ: شدة الحر بالنهار والليل.

أُمَّةٍ: جماعة يجمعهم نسب واحد.

تَذِيرٌ: منذر تخوف الناس من عذاب الله.

بِالزُّبُرِ: الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وموسى.

استخلاص مضامين الآيات:

1- من هما الفريقان اللذان قارن الله بينهما في الآيات؟

2- من صدقت الآيات؟ وماذا أبطلت؟

3- ما الغرض من ذكر الآيات تكذيب الأمم السابقة لرسولهم؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على ما يأتي:

أولاً: مقارنة بين المؤمنين وغيرهم:

ضرب الله تعالى في هذه الآيات أمثلة للكافر والمؤمن، وأنهما لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الأعمى والبصير، تمثيل للمؤمن والكافر،

والمعنى: أن الكافر الذي عمى عن إدراك الحق، وما جاء به الرسول ﷺ، لا يستوي مع المؤمن البصير الذي آمن بالله سبحانه واهتدى بهدي رسوله ﷺ.

«وقدمت الآيات تشبيه حال الكفار على حال المؤمنين، لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو بيان فظاعة الكفر، ذلك أن هذا التشبيه جيء به لتوضيح القصر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: 18] كما تقدم في الدرس السابق، وشبه الكافر بالأعمى في اختلاط أمره بين العقل والجهالة، كما يختلط أمر الأعمى بين الإدراك وعدمه.

ثم شبه الله تعالى حال المؤمن وغيره بحال الظلمات والنور، فقال سبحانه: ﴿وَلَا الضُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي: لا تستوي ظلمة الكفر، ولا نور الإيمان. وشبه الكفر بالظلمات لأن من خصائص الظلمة إخفاء الأشياء، وقد خفيت عن الكافر الحقائق الاعتقادية، فكلما بينها له القرآن لم تتضح له، كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام». [التحرير والتنوير، لابن عاشور: 292/22 (بتصرف)].

وكذلك لا يستوي الظل والحرور، قال تعالى: ﴿وَلَا الْخُلُوفُ وَلَا الْعُرُورُ﴾ وهو تمثيل للثواب والعقاب وقيل: الظل: تمثيل للجنة، والحرور تمثيل للنار. والحرور في اللغة: شدة الحر بالنهار والليل، والسموم بالنهار خاصة. والمعنى: لا يستوي الظل البارد (جزاء الإيمان) مع الحرور (جزاء الكفر والمعاصي).

وقد «شبه حال المؤمن بالظل، لما يسببه من اطمئنان النفوس وهدوئها، وما ينتج عن ذلك من أعمال وقرارات صادرة عن تبصر وتريث؛ ولما كانت حال الكافر ونفسيته

مضطربة في أمور العقيدة والتوحيد، شبه بالحرور الذي ترتبك فيه النفوس وتصدر فيه الآراء معجلة ومتفككة» [التحرير والتنوير، لابن عاشور: 293/22 (بتصرف)].

ثم شبه الله تعالى حال المؤمن وغيره بحال الأحياء والأموات، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ وهذا أبلغ مما قبله لتكرير الفعل، وزيادة ﴿لَا﴾ لتأكيد معنى النفي، وهو تمثيل لمن آمن فهو كالحى، ومن لم يؤمن فهو كالميت، أي: لا يستوي من كان قلبه حيا بالإيمان، مع من مات قلبه بالكفر.

ثانياً: دلائل صدق الرسالة النبوية وإبطال شبه المنكرين:

بعد تشبيهه الله تعالى حال المؤمنين والكافرين بما سبق، أعقب ذلك بتوجيه خطاب إلى النبي ﷺ ليعذره في عدم قبول رسالته لدى أحد الفريقين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ عبارة عن هداية الله لمن يشاء ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ عبارة عن عدم سماع الكفار للبراهين والمواعظ، فشبههم بالموتى في عدم إحساسهم، وقيل: المعنى أن أهل القبور وهم الموتى حقيقة، لا يسمعون، فليس عليك أن تسمعهم، وإنما بعثت للأحياء.

ثم أثنى الله تعالى على نبيه ونوه به وبالإسلام فقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما أنت إلا رسول، كلفت بإنذار الناس من عذاب جهنم، ولست مكلفاً بهدايتهم؛ لأن الله تعالى هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ المعنى: بعثناك بالهدى ودين الحق، بشيراً للمؤمنين بأن لهم الجنة، ونذيراً للكافرين المكذبين بأن لهم النار والعذاب الأليم.

والآية تدفع توهم قصر النبي ﷺ على النذارة قصرا حقيقيا ، وتبين أن قصره على النذارة بالنسبة لمن ماتت قلوبهم وأشبهوا أصحاب القبور؛ وتؤكد أن الرسول ﷺ يجمع في رسالته بين النذارة والبشارة ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: 105].

ثم بين سبحانه أنه لم تخل أمة من نذير ينذرهم ، ويوضح لهم رسالته . قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه: أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيا يقيم عليهم الحجة . فإن قيل: كيف لم تخل أمة من نذير وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة؟ ألا ترى أن بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي؟

فالجواب: أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة . فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْلُفُ مِنْ نَذِيرٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ﴾ [السجدة: 2] فالجواب: أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم ، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم ، وأيضا فإن المراد بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أن نبوة محمد ﷺ ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر؛ لأن الله أرسله كما أرسل من قبله ، والمراد بقوله: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْلُفُ مِنْ نَذِيرٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ﴾ أنهم محتاجون إلى الإنذار ، لكونهم لم يتقدم من ينذرهم ، فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما .

«وقد اقتصر في الآية على وصف النذير دون وصف البشير ، مراعاة للعموم الوارد فيها ، ذلك أن بعض الأمم لم تحصل لهم بشارة لأنه لم يؤمن منهم أحد ، ففي حديث ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ ،

وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشْرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ

وَحْدَهُ» [صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب] [التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور: 22

[297/].

ثالثا: تسلية الرسول ﷺ على تكذيب قومه له:

بعد ثناء الله تعالى على نبيه ﷺ، أتبع ذلك بتسليته على تكذيب قومه، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَكْفُرْ بُولًا فَقَدْ كَذَّبَ إِلَيْهِ مِرْقَلُهُمْ﴾ أي: وإن يكذبك من أشرك من قومك، فقد كذب الذين من قبلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ «حال، وقد مضى ﴿يَا بَيْتِلَيْنِ﴾ بالمعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا، وإن كان بعضها في جميعهم، وهي البينات، وبعضها في بعضهم، وهي الزبر والكتاب، وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبة» [مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي: 3 /

[85].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف إنكاري، يعني: عقوبة الكفار

المتقدمين [التسهيل: 168/2].

رابعا: مقاصد الآيات:

تدل الآيات على مقاصد تربوية جليلة، منها:

- ربط الجزاء بجنس العمل، إذ قارنت الآيات بين فريقين من الناس، فريق آمن

بالله واستجاب لرسالته وأطاع أمر ربه، فاستحق الثواب، وفريق عاند وكذب بآيات الله وما جاء به أنبياءه ورسله فاستحق بذلك العذاب.

- التأكيد على صدق رسالة النبي ﷺ، وأن مهمته تقتصر على البشارة والندارة.

- بيان أن الله سبحانه وتعالى هو من يتولى الهداية لمن يشاء من عباده.

- بيان لمنهج أصيل في الدعوة الإسلامية، وإرشاد للعلماء والمصلحين وحث لهم على الاقتداء بهذا المنهج النبوي ليوصلوا خطابهم إلى الناس مبشرين ومنذرين بالحكمة والموعظة الحسنة.

- الحكمة من الإنذار هي أن لا يبقى الضلال رائجا، وأن يرشد الناس إلى الحق والطريق المستقيم، وفي هذا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده.

التقويم

1- ما هي أوجه الاختلاف بين الفريقين المذكورين في الآيات؟

2- لماذا اقتصر على ذكر الندارة في الآية: ﴿وَإِنْ مَرَّمْتُمْ إِلَّا خَلَا فِيمَا تَذِيرٌ﴾؟ وكيف

يمكن الجمع بينها، وبين قوله تعالى: ﴿لَتَنْذِرْ قَوْمًا مَّا أَتَيْلُفُمْ مِنْ تَذِيرٍ مَرَّ بِلَكَ﴾ [السجدة: 2]؟

3- ما هي الغاية من بعثة الأنبياء والرسول؟ وما علاقة ذلك بمقاصد الآيات؟

4- كيف أقتدي بالرسول ﷺ في منهجه الدعوي؟

«فَإِنْ قُلْتَ قَابِلَ الْأَعْمَى بِالْبَصِيرِ بِلَفْظِ الْمُفْرَدِ وَكَذَلِكَ الظِّلُّ بِالْحُرُورِ وَقَابِلَ الْأَحْيَاءِ بِالْأَمْوَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَقَابِلَ الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فِي أَحَدِهِمَا وَالْوَاحِدِ فِي الْآخَرِ، فَهَلْ تَعْرِفُ فِيهِ حِكْمَةً؟ قُلْتُ: نَعَمْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ، أَمَّا فِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالظِّلِّ وَالْحُرُورِ، فَلِأَنَّهُ قَابِلَ الْجِنْسِ بِالْجِنْسِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْأَفْرَادَ لِأَنَّ فِي الْعُمَيَّانِ (وَأُولَى الْأَبْصَارِ قَدْ يُوجَدُ فَرْدٌ مِنْ أَحَدِ الْجِنْسَيْنِ يُسَاوِي فَرْدًا مِنَ الْجِنْسِ الْآخَرِ كَالْبَصِيرِ الْغَرِيبِ فِي مَوْضِعِ وَالْأَعْمَى الَّذِي هُوَ تَرْبِيَةٌ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَقَدْ يَقْدِرُ الْأَعْمَى عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَقْصِدٍ وَلَا يَقْدِرُ الْبَصِيرُ عَلَيْهِ، أَوْ يَكُونُ الْأَعْمَى عِنْدَهُ مِنَ الذِّكَاءِ مَا يُسَاوِي بِهِ الْبَلِيدَ الْبَصِيرَ، فَالْتَفَاوُتُ بَيْنَهُمَا فِي الْجِنْسَيْنِ مَقْطُوعٌ بِهِ فَإِنَّ جِنْسَ الْبَصِيرِ خَيْرٌ مِنْ جِنْسِ الْأَعْمَى، وَأَمَّا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ فَالْتَفَاوُتُ بَيْنَهُمَا أَكْثَرُ، إِذْ مَا مِنْ مَيِّتٍ يُسَاوِي فِي الْإِدْرَاكِ حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَذَكَرَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ لَا يُسَاوُونَ الْأَمْوَاتَ سَوَاءً قَابَلْتَ الْجِنْسَ بِالْجِنْسِ أَوْ قَابَلْتَ الْفَرْدَ بِالْفَرْدِ، وَأَمَّا الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ فَالْحَقُّ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَالْبَاطِلُ كَثِيرٌ وَهُوَ طَرُقُ الْإِشْرَاكِ، عَلَى مَا بَيَّنَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَبَعْضُهُمُ النَّارَ وَبَعْضُهُمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَالتَّفَاوُتُ بَيْنَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ تِلْكَ الْأَفْرَادِ وَبَيْنَ هَذَا الْوَاحِدِ بَيْنَ». [مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي: 233/26]

أتأمل النص وأبين الحكمة من استعمال الإفراد والجمع في الآيات.

الإعداد القبلي

أتأمل الآيتين: 27-28 من سورة فاطر وأجيب عن الآتي:

1- أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: **فُتِّلِعْنَا الْوُتُقَا** - **جُدُّ** - **غَرَابِيبُ** - **يَخْشَى**.

2- أبحث في الآيتين عن مظاهر قدرة الله وعلاقتها بخشيته سبحانه.